من علامات اعتلال القلب و موته

ذ. عبد الواحد مستعديل

إن الله عز وجل كرم الإنسان وشرفه من بين العديد من مخلوقاته إذ فضله عليهم بالإستعداد لمعرفتة سبحانه. فكانت هذه الفضيلة من الله جل و علا هي بحق زينة الإنسان و كماله في الدنيا و هي عدته وذخره في الآخرة. و لقد صار مرشحا مؤهلا لهذه الدرجة الرفيعة ـ معرفة الله ـ بقلبه لا بجارحة أخرى من جوارحه.

مكانة القلب و خطورته:

صحيح أن القلب لا يمكنه الوجود مجردا من دون جسد يؤويه و من دون جوارح تمشي في ركابه، فهو يفتقر إلى كل ذلك كما يفتقر المسافر إلى المركب و الزاد، إلا أنه يبقى بدون منازع: " هو العالم بالله و المتقرب إلى الله وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه. وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة. و القلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه. وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات ما هو إلا ثمرة ما استقر فيه. وهو العاصي المتمرد على الله تعالى، وإنما الذي يسري إلى الأعضاء من الفواحش ما هو إلا مظهر مما ألم به و اعتراه. وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه وإذا

جهل نفسه فقد جهل ربه. و من جهل قلبه فهو بغيره أجهل إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم. وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، ذلك ﴿ أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ سورة الأنفال، وحيلولته بأن يمنع المرء عن مشاهدة قلبه ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية "تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن"[1]. فانظر كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين"[2].

من علامات اعتلال القلب و موته:

من المعلوم أن الله اختص كل عضو من أعضاء الجسم بوظيفة معينة ومميزة، فيبلغ ذلك العضو كماله إذا أداها على الوجه الأتم ، فإذا تعذر عليه القيام بما أنيط به ، أو إذا قام به مع نوع من الاضطراب أو النقص في الأداء فقد أصبح به مرض. فالعين مثلا تمرض، و مرضها أن يصيبها أحد أنواع العمى أو أي اضطراب في وظيفتها البصرية. و مرض اللسان أن يكون به عي أو تلعثم أو أي نوع من القصور في الإفصاح. ومرض الجسم أن يكون به نوع من العجز في القيام بما تعين عليه من وظائف...

وكذلك القلب يمرض ومرضه أخطر، يقول بن قيم الجوزية: "مرض القلب : أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به؛ فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين"[3]. و إذا لم تعد تتوفر للقلب تلك الحظوظ واللذات، وذلك في يوم من الأيام حتما حاصل ، يصير معذبا من جهتين : من جهة حسرة انزياح ما كان يتخيل إليه أنه نعيم مقيم من متاع الدنيا الزائل، وأنه حيل بينه

1-مستفاد من حديث رقم 11868 رواه أبو نعيم الأصفهاني في كتابه حلية الأولياء و إسناده حسن و رواه أيضا الإمام أحمد في مسنده.

2- أبو حامد الغزالي، "إحياء علوم الدين"، دار المكتبة العلمية، بيروت، ط 1996، المجلد3، ص3 بتصرف.و نقله عنه أيضا الألوسي في روح المعاني في تفسيره لنفس الآية 14 من سورة الأنفال.

3- ابن قيم الجوزية، "إغاثة اللهفان"،دار الفكر، المجلد1،ص 68.

وبينه، مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوات ما هو خير له وأنفع وأدوم ، فلم يظفر به، و هو المحبوب الأعظم: الله جل جلاله. "وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ، ولم يؤثر عليه شيئا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب، وتعوضت بمحبة غيره"[4].

وقد يمرض القلب وتشتد به العلة، ولا يعلم به صاحبه، لأنه لا يولي ذلك أدنى اهتمام ولأنه غير متابع ولا معتن بمعرفة مدى صحة قلبه. بل قد يموت القلب وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أن تثخنه القبائح و المنكرات بالجراح و لا يؤلمه ذلك. كما أنه يغرق في بحار الجهل بذاته و بالحقائق حوله ولا يوجعه جهله. يقول الشاعر المتنبي: "وما لجرح بميت إيلام" و ذلك مثل من يصبح عديم التمييز فلا يعرف معروفا و لا ينكر منكرا. و بالعكس فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم حين يرد عليه القبيح، وتألم حين يقف على جهله بحقيقة نفسه والعوالم من حواليه و ذلك على قدر نسبة ما فيه من حياة.

و قد يشعر القلب بمرضه ولكن لا يكون له استعداد أو قوة على تحمل مرارة الدواء والصبر عليه فيؤثر بقاء ألمه على مرارة الدواء لأن دواءه في مخالفة الهوى و الشهوات وليس أصعب على النفس من ذلك، فهي تهرب منه هروبها من الأسد، بالرغم من كونه النافع لها الوحيد والأكيد.

"وتارة يوطن نفسه على الصبر [و بينه وبين الصحة و السلامة مسافة تقطع] ثم ينثني عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره...و لا سيما إن عدم الرفيق، و استوحش الوحدة، و جعل يقول: أين الناس؟ فلي بهم أسوة"[5]. فهو كعابر طريق موحش يبعث أوله على الخوف لكن آخره آمن ، وهو يعلم أنه إن صبر زال الخوف وأعقبه الأمن. فهو محتاج إذن، بعد اليقين في الغاية المقصودة، إلى التسلح بالصبر على ما سيلاقي في مسيره لأن "من عرف ما قصد هان عليه ما وجد". و الحال أن أكثر الناس لا يستطيعون تحمل متاعب الطريق، تبعد عليهم الشقة لضعف صبرهم ويقينهم فيعودون أدراجهم. و ذلك

4- المرجع السابق،ص 68.
5- المرجع السابق ،ص 69.

لأنهم ما فكروا في "الرفيق قبل الطريق"، ما فكروا في صحبة خيرة مقدامة تخفف عنهم العناء بيقينها في بلوغ المرام وبخبرتها بالطريق، فتتلمس لهم مختصره و أيسره ثم تتدرج بهم في قطع مراحله. و إذا استوحش الطريق ظلت ثابتة مثبتة تحث على السير، وتربط القلوب بالنبع الصافي والجناب العالي فتستشعر بفضل الله مرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وهي صحبة يكون ديدنها إذا لاح الحق وتبين سارت إليه قاصدة في غير تردد ولا أدنى تقاعس وفي غير حاجة إلى شاهد زائد ليشهد به، لها بأبي بكر الصديق -رضي الله عنه – أسوة و اقتداء، قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كَبْوَة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عَتّم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه"[6]، فالقلب يمكنه إبصار الحق كما تبصر العين الشمس و الرائي إذا رأى الشمس لم يعد في حاجة بعد علمه بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه.

الخلاصة:

"إن اعتلال القلب نوع فساد يحل به فينعكس على تصوره فلا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وينعكس أيضا على إرادته بحيث يكره الحق النافع و يحب الباطل الضار"[7]. لذلك نجد البعض من الناس يقبل بنهم على أكل و شرب المحرمات من لحوم و خمور و أنواع الدخان وعلى غيرها من الأفعال – زنا وقمار...- رغم إقرار عقولهم بثبات كونها خبيثة ومؤذية ومفلسة و قد تعجل بالواحد إلى حتفه بشكل أو بآخر.

6- رواه ابن عساكر مرفوعا.

7- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، الجزء 10، ص 93، المكتبة الشاملة، النسخة الرقمية.